تعليم الصغار

مضى الصيف بحرهِ وهجيرهِ وبردَ الماء واعتدلَّ الهواء وانقضت فسحة المدارس فعاد الطلبة اليها افواجًا. ونُنِّس كرب الامهات اذ القين حمل صغارهنَّ على المعلمين والمعلمات. والولد فلذة الكبد ولذَّة الوالدين ومعتمَد الامَّة. والمدارس قوالب يُفرَغ فيها واختام يطبع بها. وعلى نظامها يتوقف جانب كبير ممَّا يصدر منهُ حينما يشبُّ من القوَّة والضعف والحكمة والجهل والنفع والضرّ. فاذا أُحسِنَتْ تربيتهُ الجسديَّة والعقليَّة والاديبيَّة شبَّ صحيح الجسم رزين العقل رائع الآداب والاَّ اورثهُ سوء التربية الضعف جسمًا وعقلاً ونفسًا. والخُلق الغريزي والاستعداد الفطري لا ينافيان ذلك لانهُ اذا أُحسِنت تربية ولدين مختلفين في استعدادها الطبيعي انتفعا منها كلاهما واذا أُسيئت انضرَّ بها كلاهما. وهذه حقيقة راهنة لا جدال فيها

ودماغ الولد اكبر من دماغ الرجل بالنسبة الى جسمهِ فرأس ابن سبع سنوات مثل رأس ابن ثلاثين سنة واما جسم ابن ثلاثين سنة فيضاعف جسم ابن سبع سنوات او اكثر من مضاعفهِ. ولكنَّ دماغ الولد اشد نهيجًا من دماغ الرجل وبنائهُ اقل بلوغًا فينفعل كثيرًا بالفواعل الخارجيَّة ويتعب لاقل سبب ولذلك ترى الولد قلمَّا لا يقدر ان يوالي الدرس ساعات متوالية والا ان يحصر فكرهُ في موضوع واحد ما لم تكن لهُ منهُ لذَّة خاصَّة كما انهُ لا يستطيع العمل الجسدي الشاق ساعات متوالية كما يستطيعهُ البالغ

وكل الذين اعتادوا الاشغال العقليَّة يعلمون ان الشغل العقلي مدة ساعة من الزمان ينهك القوى العقليَّة والجسديَّة معًا اكثر من العمل الجسدي وسبب ذلك واضح وهو ان الدماغ يولِّد القوة اللازمة للشغل العقلي ولادارة بقية اعضاء الجسد فاذا بذل اكثر هذه القوة في الاشغال العقليَّة وقعت الخسارة على القلب والمعدة والرئتين والعضلات فتشكو التعب والملل. فيكون من الحماقة اجهاد عقول الصغار حالة كون اجسادهم واعضائها المختلفة محتاجة الى العمل والنمو اكثر من اجساد الكبار ناهيك عن ان عقل الصغير يشتغل دائمًا في مواضيع مختلفة. فالكبير يدخل غرفة كبيرة ولا يلتفت الى شيء ما فيها لانهُ قد رآهُ في حياتهِ مرارًا وعَلِم ما يُعلَم من امرهِ. واما الصغير فيقلِّب بصرهُ في كل ما فيها ويحب ان يلمس كل شيء بيدهِ ليعلم ما هو. اي ان عقلهُ يشتغل حينئذٍ

في معرفة كل الامتعة التي في تلك الغرفة . وكثيرًا ما ترى ولدًا ماشيًا مع ابيهِ وابوهُ ناظرٌ الى ما امامهُ فقط او غير ناظر الى شيء والولد مشغول برؤية كل ما حولهُ يتلّب فيهِ اجفانهُ ويحدق اليهِ ببصرهِ فيعثر هنا بحجر ويصتدم هناك بمركبة وهو لا يعي على شيء لان عقلهُ مشغول بمعرفة الاشياء التي يقع عليها بصرهُ . واما ابوهُ فقد رأى هذه الاشياء قبلاً وعلمها او رأى ما يماثلها فقاسها عليهِ ولم يعد يلتفت اليها

وتعقّل الصغير غير بالغ حدَّهُ من النمو لان الدماغ الذي هو آلة التعقل غير بالغ حدَّهُ بخلاف مراكز المشاعر الخمس فانها تكون فيهِ اكثر بلوغًا من مراكز التعقل فيجب ان يقتصر اكثر تعليم الصغير على ما يُدرَك بالمشاعر. واذا دُرِّبت مشاعر الصغير وترك بدون تعليم كتابي حتَّى بلغ السنة العاشرة ثم اعطي الكتاب حينئذٍ فانهُ يتعلَّم من القراءة في سنة واحدة اكثر مما يتعلَّم الطفل بين السنة الرابعة والثامنة. واذا مشى مع ولد آخر ابتُدِئَ في تعليمهِ وهو ابن اربع سنوات سبقهُ بعد سنتين او ثلاث وتقدَّم عليهِ كثيرًا في مضمار الحياة . وكثيرًا ما رأينا اولاد الجبال والارياف يتركون الناس والمحراث ويدخلون المدارس كبارًا ويشرعون في تعلم القراءة فيها ولا يمضي عليهم بضع سنين حتَّى يسبقوا اولاد المدن الذين ابتدأوا في التعلُّم اطفالاً ويفوتوهم بمراحل

قال الدكتور همند الاميركي انهُ رأى صبيًّا عمرهُ عشر سنوات وقد دُرِّس في خلالها علومًا كثيرة حتى كان ابواهُ يفتخران بهِ فاراهُ الدكتور همند صورةً وطلب اليهِ ان يخبرهُ عما يرى فيها فقال انهُ يرى رجلاً وفرسًا وشجرة وكانت اختهُ بجانبهِ وعمرها سبع سنوات وهي لا تعرف حروف الهجاء وابواها يقولان انها بليدة لا تحب الدرس فاراها الصورة فرأت فيها رجلاً وفرسًا وشجرة وعصفور بن على الارض وقطة كامنة لها وبيتًا وامرأةً واقفةً بالباب وبئرًا بجانب البيت. فانبأ الدكتور همند بان هذين الولدين لا يبلغان السادسة عشرة حتى تفوق البنت الصبيَّ علمًا ومعرفة اذا اعتُني بتعليمها من ذلك الوقت فصاعدًا كما يعتنى بتعليمهِ . وعندهُ ان التعليم في العشر السنوات الاولى يجب ان يقتصر على ما يدرك بالمشاعر فقط بدون كتاب فيعلَّم الصغار ان يعرفوا وصف ما حولهم في البيوت والحقول من الامتعة والحيوانات والنباتات والاشياء المختلفة ويطَّلعوا على كتب فيها صور مصنوعة لاجل التعليم

ومن اكبر الخلل في المدارس تدريس الصغار علومًا كثيرة مختلفة في وقت واحد .

وعند الدكتور هُنْد انهُ يجب قصر الدرس على علمين او ثلاثة وان علمي الصرف والنحو يجب ان يُنفيا من المدارس الصغيرة ولا يدرَّسا الاَّ في السنة الاخيرة في المدارس الكبرى وان هذين العلمين من شر الوسائط التي اخترعها البشر لإتعاب الدماغ والإخلال بقواهُ وانهُ لو كان كل الطلبة او نصفهم يدركون ما يُعلَّمونهُ من هذين العلمين لاختلَّت عقول كثيرين منهم . ونحن نوافقهُ على هذا القول في الكيف وان لم نوافقهُ في الكم لان درس قواعد اللغة من اعوص الدروس واقلها لذة للصغار ولذلك قلَّ مَن يبرع منهم فيها . وقس على ذلك دروسًا اخرى مما يتعلمهُ الصغار ويحفظونهُ غيبًا ولا يدركون شيئًا من معناهُ . بل ان الكبار قد يتعلمون علومًا كثيرة لا يدركون منها شيئًا ولا يستطيعون استعمالها . سئل احد الشبان امامنا عن العبارة الجبرية لمساحة المخروط الناقص فسردها حالاً وسبقت يدهُ لسانهُ في كتابتها على اللوح الاسود ثم سئل عن مساحة عصًا شكلها كالمخروط الناقص فوقف ربع ساعة وهو لا يدري ماذا يجب ان يقيس منها ليستخرج منهُ مساحتها . فكان الاولى ان يُعلَّم كيفيَّة التصرُّف في هذا العمل لا ان يعلَّم العبارات الجبرية العويصة لان العبارات الجبرية يمكن استخراجها من الكتاب واما معرفة كيفيَّة العمل فلا توجد في الكتاب بل في العقل

ومما لا مريبة فيهِ ان اكثر الرجال والنساء الذين اشتهروا وفاقوا معاصريهم هم من الذين لم يتعلموا باكرًا بل أُهمل امرُ تعليمهم في حداثتهم حتى تمت ادمغتهم وبلغت اشدها او عُلِّموا علومًا قليلة بسيطة ولم تجهد قواهم العقليَّة في صغرهم ثم لما كبروا أكبُّوا على بعض العلوم فافلحوا وفاقوا اقرانهم . ودرسُ ساعة واحدة والعقل مرتاح والدماغ بالغٌ اشدهُ ومطامع الانسان قوية ورغبتهُ شديدة وهو عالم انهُ يدرس لكي يوجد لنفسهِ مقامًا بين اقرانهِ خيرٌ من درس عشرين ساعة والعقل متعب بدروس كثيرة والدماغ غير بالغ والداعي الى الدرس رهبة المعلم او خوف القصاص

وجملة القول ان التعليم الباكر مضرٌّ بالصغار ولاسيَّما اذا اعتُمد فيهِ على الكتب وعلى اجهاد الذاكرة وخير منهُ تدريب المشاعر والاعتماد على ما يمكن ادراكهُ بها فعوضًا عن ان تعلِّم الصغير ماهيَّة البكرة بالوصف اروِ بكرة وقل لهُ هذه بكرة فترسخ صورتها في ذهنهِ وقس على ذلك . فعسى ان يرى الوالدون والمدرِّسون في ما ذكرناهُ موجزًا فوائد في تعليم الصغار وتربية عقولهم